الرقم التسلسلي المعياري الدولي: 2788-8037
المزيد عن رواق عربي وقواعد تقديم الأبحاث للنشر
https://rowaq.cihrs.org/submissions/?lang=en

الافتتاحية: المقاومة.. وتكوّن مشروع وطني جديد

محمد السيد سعيد

الإشارة المرجعية لهذا المقال: سعيد، محمد السيد (2003) *الافتتاحية: المقاومة.. وتكوّن مشروع وطني جديد*. رواق عربي، 8 (1)، 8-22.

إيضاح
هذا المقال يجوز استخدامه لأغراض البحث والتدريس والتعلم بشرط الإشارة المرجعية إليه. يبذل محررو رواق عربي أقصى جهدهم من أجل التأكد من دقة كل المعلومات الواردة في الدورية. غير أن المحررين وكذلك مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان لا يتحملون أي مسؤولية ولا يقدمون أي ضمانات من أي نوع فيما يخص دقة أو كمال أو مناسبة المحتوى المنشور لأي غرض. وأي آراء يعرضها محتوى هذا المقال هي آراء تخص كاتبيه، وليست بالضرورة آراء محرري رواق عربي أو مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

حقوق النشر
هذا المصنف منشور برخصة المشاع الإبداعي نَسب المُصنَّف 4.0.

المقاومة.. وتكوّن مشروع وطني جديد

كعادة الأزمات الكبيرة والزلازل العملاقة التى تهزّ وطننا العربي أدى العدوان الأمريكى الإجرامي ضد العراق إلى تنشيط هائل للعقل السياسى، والمجتمع المدنى والسياسى فى جميع الأقطار العربية.

وقبل أن نستنبط الاتجاهات الرئيسية للتحول الفكرى والسياسى فى العالم العربى، لابد أن نشير أولا الى أن وصف العدوان الأنجلو أمريكى على العراق بصفة الإجرام، فى هذا السياق، لا يعدّ نوعاً من المبالغة أو التحريض أو السب وانما كمصطلح قانونى. فالواقع أن هذا العدوان يتسم بكل الخصائص التى جاءت فى تعريف الأمم المتحدة بصفتها الجهة المخولة القيام بصيانة الأمن والسلم الدوليين وتوثيق الاتجاهات الجديدة فى القانون الدولي لمصطلح "العدوان".

فالعدوان الأنجلو أمريكى على العراق لم يتم نتيجة أية "استفزازات"، ولم يتم التفويض به من أية جهة قانونية دولية، ولا يردّ على عدوان قامت به العراق، وليس فيه أدنى شبهة للدفاع عن النفس المنصوص عليها فى المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة. وبهذا المعنى فهو خرق خطير لميثاق الأمم المتحدة ويعد "حربا اجرامية" تستدعى قيام الأمم المتحدة بتحريك أليااتها الخاصة بالدفاع عن السلم والأمن الدوليين وقمع هذا العدوان بالوسائل المنصوص عليها فى الفصل السابع من الميثاق.

ويمنع مثل هذا الاجراء أن من قام بالعدوان هى دول من الدول الأعضاء الدائمين بمجلس الأمن، وضد إرادة المجلس وميثاق الأمم المتحدة. فليس من المتصور عملياً، فى الظروف الحالية، أن تقوم الدول الأصغر، سواء بالمجلس أو بالجمعية العامة، بمحاربة اقوى قوتين عسكريتين فى العالم حتى لو أن

واجبها فى الدفاع عن الميثاق يحتاج ذلك.

ولكن الصفة الاجرامية للعدوان الأنجلو أمريكى لا تنتفى لمجرد عجز الأمم المتحدة عن الدفاع عن نفسها وتحريك آلياتها لقمعه. وقد يأتى يوم نستطيع فيه محاكمة المسئولين عن القيام بهذا الخرق الخطير لميثاق الأمم المتحدة وتهديد السلم والأمن الدوليين. وحتى يتم ذلك يملى الواجب أن يقوم جميع المثقفين والمعنيين فى العالم أجمع بالتذكير بهذا الطابع الإجرامي للعدوان الأمريكى على العراق، فيستخدمون هذا المصطلح بصورة مستدامة حتى لا ينسى أحد واجب القيام بمحاكمة هؤلاء المسئولين السياسيين، وجميع المسئولين عما تشمله تلك الحرب من جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

النظم القمعية العربية لم تتردد في تحريك آليات القمع كلما تجمع عدد من الناس لمجرد التفكير في الشأن العام

لقد نشّطت تلك الحرب الإجرامية أذهان العالم أجمع، وحواس المقاومة المشروعة لها فى المجتمعات المدنية والسياسية فى العالم أجمع تقريبا. وتحركت مظاهرات ومسيرات المعارضة فى الولايات المتحدة ضد التهديد بالعدوان منذ يونيو، عام ٢٠٠٢ وأخذت تنمو حركة مناهضة الحرب هناك بسرعة خارقة لا تصدق. وبداية من هذا العام أخذت العدوى تنتقل إلى بقية العالم الغربى وخاصة أوربا الغربية والشمالية ومن ثم الى بقية أرجاء العالم. وفى يوم ١٥ فبراير ٢٠٠٣ تحركت جموع هائلة فى شوارع وميادين ما لا يقل عن ٦٠٠ مدينة فى أكثر من ستين دولة تنتمى إلى قارات العالم الست لمناهضة ورفض التهديد بالعدوان.

وخلال فترة طويلة عجزت المجتمعات المدنية والسياسية العربية عن المشاركة فى حركة المناهضة العالمية لمشروع العدوان الأنجلو أمريكى على العراق. هذا العجز حرّك نوعاً من الشعور بالفجوة، بل وبالعار، بين النشطاء فى الحركة الديموقراطية والحقوقية العربية وبين الإعلاميين والمثقفين والقادة السياسيين العرب. ولم يقلل من هذا الشعور أن عدداً من المسيرات الكبيرة تحركت فى عدد محدود من العواصم العربية فى مرحلة متأخرة من

التهديد بتلك الحرب الاجرامية وخاصة فى الدار البيضاء وأخيرا فى القاهرة.

لقد أدرك هؤلاء جميعا مدى الفجوة التى تفصل بين المجتمعات الديموقراطية ومجتمعاتنا. فبينما يستهدف الهجوم العدوانى والعسكرى الأمريكى مجتمعات وأقطار عربية فإن المجتمعات الديموقراطية هى التى تحركت لمناهضته وليس مجتمعاتنا العربية.

ايقاظ الحس الوطني والقومي صار مرهونا بالتحول إلى الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان

كان الشعور بالخجل أو العار قد انبثق من ادراك المدى المذهل من التلف والخمود الذى أصاب المجتمعات العربية بسبب الخضوع لنظم سياسية قمعية وشمولية طوال فترة طويلة جدا من الزمن.ولم يكن من الممكن لأية مدرسة فكرية أو سياسية أو أى شخص عاقل تجنب استنتاج أن السبب البسيط والحقيقى وراء تلك الفجوة المذهلة فى أداء ومواقف المجتمع المدنى العالمى من ناحية والمجتمعات العربية يتلخص فى كلمات قليلة: الديموقراطية واحترام الحقوق الأساسية. فالنظم القمعية العربية لم تدخر وسعا فى نزع الحيوية من مجتمعاتها و لم تتردد فى تحريك كل اليات القمع التى تنتهك حقوق الانسان كلما تجمع أى عدد من الناس للتفكير..مجرد التفكير فى الشأن العام والمصالح المشتركة للبلاد العربية. وبكل أسف تمكنت هذه النظم من توظيف الخطاب الوطنى أو الاجتماعى السطحى لتبرير تلك الانتهاكات الواسعة والمنهجية للحق فى التعبير والتجمع والتنظيم، والحق فى محاكمة نزيهة، وفى تلقى وارسال المعلومات أو تبرير ممارسة جرائم التعذيب والاعتقال العشوائى، وتزوير الانتخابات العامة وغيرها من الانتهاكات الجسيمة لحقوق الانسان. وساعد عدد لا بأس به من المثقفين والاعلاميين وخاصة هؤلاء الذين عاشوا طويلا بعقلية عبادة النماذج الشمولية على التغطية على تلك الجرائم أو التنظير لها "بعمق" فقال البعض بأن التركيز على الديموقراطية والحقوق السياسية هو تبعية للغرب ووصف كثير من

هؤلاء حركة حقوق الانسان باشنع الصفات والألفاظ. بينما قال آخرون أن الأولوية يجب أن تكون للقمة العيش فى تبرير كلاسيكى بالغ السخف للاستخفاف بحرية التعبير والحقوق المدنية والسياسية بصورة عامة والتنظير للشمولية والاستبداد. ووظف هؤلاء جميعا "عقدة الخوف من الغرب" توظيفاً انتهازياً وسيئ النية لوقف النضال من أجل الديموقراطية.

لقد فضحت طائفة من الاتجاهات القومية والعالمية الجديدة هذه الموجة من الانتهازية الفكرية والسياسية. فتدفق النضال العالمى ضد الحرب. ووقوف فرنسا وألمانيا وروسيا ضد مشروع الغزو الأمريكى للعراق فى مجلس الأمن، ونجاح هذه القوى فى حرمان هذا المشروع من الشرعية الدولية، أسقط الفكرة الانتهازية القائلة بأن الصراع يدور بين العرب والغرب. فالغرب ظهر كفضاء بالغ التنوع ليس فقط من الناحية الثقافية فحسب بل ومن الناحية السياسية أيضا. أما الحركة المدنية الكفاحية الرائعة التى تدفقت فى جميع أنحاء العالم ومن داخل كافة أقاليمه السياسية والثقافية فقد أسقطت ما ركزت عليه اتجاهات معينة فى الفكر السياسى العربى من دوافع ثقافية وراء الحملة الأمريكية المعادية للعالم العربى وثقافته. ومن ثم لم يعد من الممكن الدفاع عن أحادية خطاب الهوية الذى دفع المجتمعات العربية الى رؤية للعالم تتوجس من أو تقود إلى رفض التفاعل الخلاق مع الثقافات الأخرى فى العالم، والانكماش على الذات القومية أو الدينية، أو تغليظ الحدود بيننا وبين الأخرين، أو اثارة الكراهية والخوف من جميع الأنظمة الثقافية والمجتمعية الأخرى.

وعلى نفس الدرجة من الأهمية فضح خطاب الأمن القومى الذى استخدم لتبرير قمع الحريات العامة وحركات الاصلاح السياسى والدستورى نفسه تماما. فعندما آن أوان الدفاع عن الوطن أو مناهضة العدوان الأمريكى على العراق لم تقم الأنظمة العربية بواجبها. وتواطىء بعضها بصورة سافرة

عندما آن أوان الدفاع عن الوطن أو مناهضة العدوان على العراق لم تقم الأنظمة العربية بواجبها وتواطأ بعضها مع العدوان

مع العدوان الأمريكى ضد العراق. وقامت جميع هذه الأنظمة بقمع التحركات الشعبية القليلة للتضامن مع الشعب العراقى وادانة العدوان الأنجلو الأمريكى.

لقد تمكنت بعض القوى الشعبية من التحرك لاعلان التضامن مع الشعب العراقى وإدانة العدوان الأمريكى ضد العراق فى عدد من الدول العربية بعد أن بدأ الغزو بالفعل. وقامت قوات الأمن بقمع شديد لهذه التحركات الشرعية والسلمية وهو ما أدى الى اضعافها أو انحرافها الى بعض مظاهر العنف. ورغم أن تلك التحركات قد أزالت الشعور بالعار الناتج عن غيابها قبل الغزو الفعلى فلا يمكن مقارنتها حجماً ونوعاً وتأثيراً بما يتم خارج العالم العربى، وحتى فى بلاد بعيدة جدا عن مركز أو بؤرة الصراع مثل الفيلبين والأرجنتين وكوريا الجنوبية.

أمريكا ليست مؤهلة لإلقاء محاضرات حول الديمقراطية فهى نفسها التي قادت الانقلابات التشريعية ضد حقوق وحريات مواطنيها

وتكفى هذه الفجوة بين مستويات نمو الحركة المناهضة للحرب فى العالم وبين واقع التحرك المدنى العربى للتضامن مع الشعب العراقى لابراز ما أدى اليه الحرمان من الحقوق الديموقراطية. لقد قلنا دائما أن المجتمعات المدنية بل وفكرة المجتمع ذاتها قد تخمد فى ظل الواقع التسلطى الذى عشناه لعقود فى مختلف الأقطار العربية وأن ايقاظ حتى الحس الوطنى والقومى صار مرهونا بالتحول الحاسم الى الديموقراطية والاحترام التام لحقوق الانسان. كان هذا الاكتشاف العملى أحد العوامل المؤثرة وراء مساهمة عدد كبير من المفكرين المنتمين الى المدرسة القومية فى تأسيس المنظمة العربية لحقوق الانسان عام ١٩٨٣ وبعد الاجتياح الاسرائيلى للبنان. والآن تظهر نفس الحقيقة بمزيد من الوضوح لتمثل إدانة شديدة لهؤلاء الذين واصلوا تبرير الشمولية السياسية فى العالم العربى تحت غطاءات ومبررات شتى.

تثبت ضآلة التحركات المبكرة ضد الحرب، وللتضامن مع الشعب العراقى أيضا صحة أحد الأفكار الأساسية التى رمت الحركة الحقوقية العربية الى

غرسها بقوة فى الوعى العام. نشير هنا تحديداً إلى أن الحرمان الممتد من الحقوق المدنية والسياسية واستمرار الانتهاكات الجسيمة لحقوق الانسان التى تقوم بها أنظمة شمولية وتسلطية يسبب أضرارا شديدة حتى بقدرة الشعوب على الدفاع عن الوطن. كما أنه يحرمها بالطبع من القدرة على الدفاع عن نفسها وعن حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فلا يمكن تفسير ضعف حركة المناهضة للحرب والتضامن مع الشعب العراقى- فى العالم العربى- إلا كنتيجة للواقع التسلطى الذى عاشته الشعوب العربية لعقود طويلة. فحتى لو كانت النظم العربية قد تسامحت مع أعمال التظاهر السياسى السلمى والمسيرات وأعمال التضامن الجماعى الأخرى مع العراق لما ضمن ذلك ضخامة أو فاعلية النضال الشعبى ضد الغزو الأنجلو أمريكى للعرق. فالحيوية الشعبية والمدنية لا تنبثق فجأة الا نادراً وقد تضمر أو تتكمش طاقتها المحركة اذا لم يكن الناس قد تمتعوا بالحد الأدنى من الحريات العامة لفترة طويلة سابقة ونجحوا فى بناء مؤسساتهم الشعبية والمدنية والسياسية.

لقد جربنا نظماً وطنية قضت على الحريات العامة وانتهت بأن قوّضت المجتمع نفسه

وقد أشار بيان أصدره نادى القضاة فى مصر، بعد أيام من العدوان الأنجلو أمريكى على العراق، إلى هذه الحقيقة. فضعف أداء النظم العربية فى منع الحرب يتسق تماما مع ما أدت اليه ممارساتها من نزع وطعن كرامة الانسان العربى وحرمانه من حقوقة السياسية والمدنية. وأشار البيان أيضا إلى أن ما يحدث فى العالم من معارضة للعدوان الأمريكى على العراق يؤكد أن الصراع سياسى صرف ولا شأن له بصراع الحضارات أو الثقافات.

وأشار بيان أخر يدين العدوان الأنجلو أمريكى على العراق صدر باسم "مبادرة تجديد المشروع الوطنى" الى "ضرورة اصلاح دستورى وسياسى وتشريعى جذرى فى بلادنا وتحديث بنى المجتمع وتعزيز قيم الاستنارة والعقلانية كشرط أساسى وضرورى لحشد الطاقات لمواجهة ما يحيق بنا من

أخطار فى اطار دولة مدنية ديموقراطية".

ولعلنا نسأل فى هذا السياق الى أى حد قد يدشن العدوان الانجلو أمريكى على العراق مرحلة جديدة فى التاريخ السياسى والاجتماعى العربى: مرحلة تحدث قطيعة مع التسلط والشمولية السياسية وتنهض على الديموقراطية وحقوق الانسان.

النظم السياسية التي حكمت البلاد العربية بالحديد والنار لم تعد قادرة على تلبية حاجة الإنسان العربي للدفاع عن نفسه أمام تغوّل الإمبريالية الأمريكية

لا يجب أن يكون هناك أى خلط حول الطبيعة الحقيقية للعدوان الأنجلو أمريكى. فالدعاية المبتذلة الصادرة عن الإدارة اليمينية الأمريكية، ومختلف مراكز الهيمنة الأيديولوجية فى الولايات المتحدة بما فيها الصحف ومحطات التليفزيون وكثرة من مراكز البحوث اليمينية هناك أنشأت خطاباً تبريرياً للحرب والعدوان يقوم على الادعاء بأن أحد أهداف هذه الحرب الاجرامية هو اقامة نظام ديموقراطى فى العراق بعد تدمير نظام صدام حسين.

والواقع أن الشعب العراقى قد ردّ على هذه الدعاية المبتذلة بنفسه ومن خلال المقاومة الجبارة والباسلة التى قابل بها قوات العدوان. تشتمل هذه المقاومة على رسالة خالدة تقول بأن الديموقراطية لا تأتى من خلال العدوان والغزو والاحتلال أو بفوهة الدبابات والمدافع. وتفضح هذه المقاومة النوايا الحقيقية للعدوان وهى الاستعمار والسيطرة على الموارد النفطية العربية وتتبيع النظم السياسية العربية وعلى رأسها العراق، وتوظيفها فى خدمةالأهداف الاستراتيجية للحركة الصهيونية العنصرية فى اسرائيل والولايات المتحدة نفسها. ولا شىء مطلقا يجيز لمجرمى الحرب المتربصين بالشعوب فى الادارة الأمريكية، والأجهزة العسكرية والأمنية والسياسية التى تقف خلف هذه الادارة الحديث باسم الشعوب وخاصة الشعوب العربية التى لم تكف هذه القوى عن التنكيل بها وابادتها فى فلسطين وفى عدد كبير من الدول العربية والاسلامية. ولا يمكن لهذه الشعوب أن تثق فيمن يقف لدعم المشروع الصهيونى الإمبريالي والقهرى الذى يسعى لتأمين الشروط اللازمة

لاستكمال تصفية الشعب الفلسطينى والهيمنة، بوسائل الحرب، على كافة شعوب المنطقة العربية. ولم تتوقف هذه القوى الإجرامية عن فضح نفسها بنفسها عندما تعلن بكل وقاحة عن نواياها فى السيطرة على العالم باسم الشعب الأمريكى، وبناء إمبراطورية عالمية على حساب هدم واحتقار وتدمير القانون الدولى والسيطرة على النفط العربى وتغيير الحياة الثقافية والسياسية فى البلاد العربية بصورة قسرية وبمختلف وسائل العنف والابتزاز. كما أن هذه القوى تفضح نفسها بتركيز نيرانها على كافة مظاهر المقاومة لدى الشعوب العربية وإعلان الحرب على الشعب الفلسطينى والتدمير المنظم والمنهجى طويل المدى للعراق حتى قبل القيام بعدوانها الأخير.

الكرامة الوطنية لا تنفصل أبداً عن الكرامة الإنسانية التي هى جوهر المواطنية

فى اطار هذا النوع من الأفكار والممارسات والمؤامرت العسكرية والسياسية لا يوجد مكان للديموقراطية الا اذا كانت تعنى تخريب وضرب المجتمع والدولة والقانون وحرمان الشعوب من حقها المقدس فى تقرير مصيرها وحكم نفسها بنفسها. ويعرف الجميع أن هذه القوى نفسها هى التى قادت الانقلابات التشريعية ضد الحقوق والحريات الديموقراطية فى الولايات المتحدة منذ ١١ سبتمبر. وهى بهذه الصفة ليست مؤهلة لالقاء محاضرات حول الديموقراطية للأخرين.

وبالنسبة للشعوب العربية لا يمكن فصل الديموقراطية عن الاستقلال الوطنى. وتحتفظ الجماهير العربية فى جميع الأقطار فى ذاكرتها التاريخية بشتى صنوف التلاعب بالمصطلحات المشرقة مثل الحريات والديموقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات التى وظفت بصورة انتهازية وحقيرة لتبرير الاستعمار الغربى للبلاد العربية أو التلاعب بحاضرها ومستقبلها السياسى.

وبسبب هذه الدعايات المبتذلة والحقيرة يختلط الأمر أحياناً لدى أقسام

من النخبة السياسية والثقافية العربية فتلجأ إلى إبراز خطاب ينبذ هذه المصطلحات نفسها، أو يرفض الاعتراف بأولويتها وضرورتها للتطور الصحى للمجتمعات العربية نفسها. ومن المنطقى للغاية أن تقوم تلك الأقسام بالتعبير عن استهانتها بتشخيص النظم العربية أو الواقع الدستورى والسياسى والثقافى الفعلى للبلاد العربية كنتيجة للاستبداد والتسلط والعنف الرسمى مقابل التركيز الأحادى على دور بعض هذه النظم فى مقاومة الاستعمار أو الصهيونية واسرائيل. وهذه هو ما يجرى بالفعل بالنسبة للحالة العراقية.

نشّط العدوان الأمريكي ضد فلسطين والعراق معاً الحالة الثقافية العربية، وهو ما يقود إلى تنشيط وتعميق النقاش العام

فالمقاومة الباسلة للشعب والجيش العراقى تبدو من وجهة نظر الفكر الشمولى العربى كنتيجة لقيادة نظم "قومية" أو "ثورية" أو "تقدمية" أو غير ذلك من الصفات التى أطلقتها تلك النظم على نفسها وعلى رأسها النظام العراقى.

والواقع أن الحقيقة تبدو غير ذلك تماما. فالمقاومة الباسلة للعدوان الإجرامي الأنجلو أمريكى بين صفوف الشعب والجيش لم تتدفق بفضل التراث أو النظام الاستبدادى الذى يهيمن عليه الرئيس صدام حسين وانما بالرغم منه. وبوسعنا أن نبرهن على أن أحد نتائج هذه المقاومة الوطنية هو استمرارها فى المستقبل على المحور أو المستوى الديموقراطى.

لنلاحظ فى الحالة العراقية تحديدا أن الاستبداد الطويل وبالغ القسوة كان قد مزق العراق بالفعل وألب أبناء البلد الواحد على بعضهم البعض. وبكل أسف يشارك كثير من تيارات العراقية فى العدوان الأمريكى على بلادهم. ويسهل أن ندين هذه المشاركة ولكن يبقى أن من الواجب أن نتأمل اسبابها ودوافعها ودلالاتها. فعندما يتعاون آلاف الناس من اتجاهات سياسية عديدة مع العدوان لا يمكن أن نختزل الموضوع فى الاتهام بالخيانة ويجب أن نلتقط جدية الأسباب التى دفعتهم لهذا الموقف الخاطىء. فالغالبية العظمى من هؤلاء الناس لم يحركهم مجرد الثأر الشخصى من نظام قتل او قام

بتعذيب واعتقال واساءة معاملتهم هم وعائلاتهم. وإنما حركهم أيضا تراث طويل من سياسات الاستئصال السياسى والفكرى والثقافى، وسياسات القمع والابادة. وهذا كله أدى بين ما أدى الى تهجير ما لا يقل عن مليونين من العراقيين.

إن الغالبية الساحقة من هؤلاء اتخذوا موقفا مبدئيا بادانة العدوان الأمريكى على بلادهم مهما كانت تحفظاتهم ورفضهم للسياسات التى انتهجها نظام صدام حسين بحقهم مباشرة أو بصورة عير مباشرة. ويشارك فى هذا الموقف منظمات معارضة متباينة بدءا من المجلس الأعلى للثورة الإسلامية حتى الحزب الشيوعى العراقى واللذين لولا وجودهم فى المنفى لكانوا قد دافعوا عن بلادهم بالسلاح جنباً إلى جنب مع أبناء شعبهم.

الحكومات العربية تبدو قوية جداً تجاه شعوبها وضعيفة جداً ضد العدوان الخارجي وخاصة الأمريكي

والواقع أن هذا هو نفسه التفسير الصحيح للمقاومة الشعبية الباسلة التى أبداها الشعب العراقى ضد العدوان سياسياً أو عسكرياً. فإذا استثنينا كوادر الحزب الحاكم السياسية والعسكرية وأغلبها لم تتورع عن المشاركة فى قمع شعبهم، فالغالبية العظمى من الشعب قاوم بالرغم من ألمه الشديد وتحفظه الأشد على ممارسات النظام السياسى الشمولى فى بلاده.

ولكن ما أن تتكون خبرات شعبية مباشرة بالمقاومة ضد الاحتلال والغزو الأجنبى حتى يصبح من المستحيل رد الناس إلى حالة الاستلاب والعجز التى سيطرت عليهم لعقود طويلة أمام القمع الأجرامى الذى قام به النظام السياسى ضدهم. ومن المحتم أن يقود تراكم الخبرة فى أعمال المقاومة ضد الاحتلال إلى الإصرار على مواصلة المقاومة ضد شتى صور القهر الداخلى. وبكل تأكيد لن يكون بمكنة أى نظام أن يرد شعباً، مارس المقاومة، إلى دور الضحية العاجزة مرة أخرى.

أما التوقعات بالنسبة لبقية البلاد العربية فقد تكون مختلطة الى حد ما. ولا شك أن هناك اختلافات مهمة فيما بين مختلف البلاد العربية تبعا

لمستوى تطور عملية بناء الأمة والتراكم النضالى السياسى والمدنى والتاريخ الاجتماعى الخاص. وهناك مع ذلك عدد من المؤشرات المشتركة.

فعلى الجانب السلبى ثمة واقع سياسى يتسم باستقطاب ثنائى بين النظم القمعية الحاكمة من ناحية وتيارات الاسلام السياسى من ناحية ثانية. وبوجه عام ورغم الاختلافات فى مستوى تطور وعى وأيديولوجيا الحركات الإسلامية السياسية فقد كرست نقدا أحادى الاتجاه للدولة ينصب من ناحية على خطاب الهوية فى المجال الخارجى على الرؤية الدينية لوظيفة الدولة من ناحية أخرى. وبسبب الوزن الشعبى الكبير لهذه التيارات لم يتطور نضال ديموقراطى حقيقى على المستوى الجماهيرى. بل العكس هو ما حدث. حيث انصب النقد الجماهيرى فى أفضل الأحوال على الجوانب الدينية والأخلاقية دون الترتيبات السياسية والاجتماعية والثقافية التى تتسم بالطابع التسلطى. ولا شك أيضا أن النفوذ الواسع لتيارات الإسلام السياسى قد اقامت أسوارا عازلة بين العرب والمسلمين وأبناء الثقافات والأديان الأخرى فى العالم، وأحياناً فى نفس البلد العربى. وهو ما شكل أحد الإعاقات المهمة أمام النضال من أجل بناء دولة الحق والقانون أو الدولة المدنية القانونية الحديثة.

لقد ساهمت السياسة الأمريكية وبصفة خاصة منذ انطلاقة الانتفاضة الفلسطينية فى دفع مزيد من الجماهير الى تبنى خطاب الهوية الدينية والخط السياسى العام لحركات الإسلام السياسى التى لا زالت عازفة عن تبنى الفكرة المدنية الديمقراطية، أو رافضة لها. وأفادت تلك الحركات من السياسة العدوانية الأجرامية للإدارة الأمريكية الحالية، التى جرفت نحوها جماهير جديدة حتى من بين صفوف الطبقات العليا فى عدد من الأقطار العربية.

ومن ناحية أخرى قاد رد الفعل الميكانيكى للعدوان الأمريكى ضد العراق

يشعر ملايين المواطنين العرب بالصدمة لقيام عدد من الحكومات العربية بتقديم قواعدها العسكرية لتسهيل العدوان الأمريكي على العراق

إلى بلبلة فكرية عميقة بسبب توظيف هذا العدوان لخطاب حقوق الإنسان والديموقراطية سواء لتبرير العدوان على العراق أو الضغوط المختلفة التى تمارس ضد الدول العربية الأخرى.

أما على المستوى الإيجابي فقد نشّط العدوان الأمريكى ضد فلسطين والعراق معاً الحالة الثقافية العربية بصورة خارقة وهو ما يقود جزئيا إلى تنشيط وتعميق النقاش العام. وحرّر ايقاظ حس المقاومة الناس من ثقافة الخوف التى جثمت على صدورهم لفترة طويلة من الزمن. وبسبب موجة القمع التى قابلت بها النظم السياسية حركة التضامن مع الشعبيين الفلسطينى والعراقى، يربط الناس بين البطش تجاه حركة المجتمع فى الداخل والضعف والهوان فى الخارج. فالحكومات تبدو قوية جدا تجاه شعوبها وضعيفة جدا ضد العدوان الخارجى وخاصة الأمريكى. ويستنتج الناس أن الديموقراطية صارت شرطا ضروريا للمقاومة ضد الاستعمار الأمريكى الجديد وعدوانه الاثم ضد الشعوب العربية والاسلامية اضافة لكونها مطلوبة لذاتها.

كما جرف هذا التنشيط قطاعات جديدة من الشباب، كانت منسحبة بصورة شبه تامة، إلى ساحة العمل العام السياسى والمدنى، وأوقظت الحركة الشبابية والطلابية من جديد. واتسمت هذه الحركة بالتنوع فى مصادرها الفكرية بحيث وقع أول انكسار مهم لاحتكار تيار الإسلام السياسى للساحة الطلابية والشعبية بوجه عام. وصعد النقد الديموقراطى للسياسات التسلطية والشمولية للنظم السياسية من جديد. وبينما نلحظ خليطا أيديولوجيا فى حركة التضامن مع الشعب العراقى فان الفكر الديموقراطى لم يغب عن ساحة النقاش العام أو الحركة الاجتماعية والسياسية. وعزز من هذا الاتجاه الدور الكبير الذى قام به المجتمع المدنى العالمى المناهض للحرب فى تأكيد تراث التضامن والأخوة بين الشعوب وبالتالى نفى وتمزيق الحجج

المعارضة العراقية اتخذت موقفاً مبدئيا بإدانة العدوان الأمريكي على بلادهم مهما كانت تحفظاتهم ورفضهم للسياسات التي انتهجها نظام صدام بحقهم

التى نهضت على فكر العداء للثقافات الأخرى التى ميزت الاسلام السياسى والقومى المتطرف.

لقد انتهى أداء النظام الإقليمى العربى إلى نتيجة مفجعة للجماهير العربية فى كل مكان تقريبا. ويشعر ملايين المواطنين العرب بالصدمة الشديدة لقيام عدد من الحكومات العربية بتقديم قواعدها العسكرية لخدمة المجهود الحربى الأمريكى ضد العراق. كما أن عجز هذا النظام عموما حتى عن مجرد الدفاع عن نفسه، ضد ما يعلنه اليمين الأمريكى بنفسه من أهداف معادية لجميع الاقطار العربية بما فيها الدول الحليفة التقليدية، أثار غضب ملايين من الناس. ويطغى الشعور عام فى جميع الأقطار العربية تقريباً بأن النظام العربى التقليدى والمرتبط بجامعة الدول العربية قد أفلس وعفى عليه الزمن. كما أن النظم السياسية التى حكمت البلاد العربية بالحديد والنار، خلال ربع القرن الأخير، لم تعد قادرة على تلبية حاجة الإنسان العربى للدفاع عن نفسه ضد تغوّل الإمبريالية الأمريكية، ولا هى قادرة على تحقيق التنمية أو احترام الحقوق الأساسية أو حتى الحكم فى إطار القانون وضمان الحد الأدنى من الحريات العامة، وأن هذه النظم لم تعد تفيد أحدا سوى القائمين عليها والمتعيشين على الموارد العامة وخيرات البلاد.

من المحتم أن يقود تراكم الخبرة في أعمال المقاومة ضد الاحتلال الأمريكي إلى الإصرار على مواصلة المقاومة ضد شتى صور القهر الداخلي

وثمة شعور طاغ بأن الحركة الاجتماعية والوطنية والقومية تحتاج إلى عملية إحياء وتخصيب وتجديد جبارة وهى حاجات لا يمكن الوفاء بها الا من خلال انجاز التحول الديموقراطى.

هذه الاتجاهات المتعارضة للحالة الجماهيرية والسياسية والمدنية التى انبثقت فى سياق العدوان الأمريكى الصهيونى ضد الشعوب العربية والشعبين الفلسطينى والعراقى بصورة خاصة تفتح احتمالين واسعين للتطور المستقبلى: الاحتمال الأول هو استمرار هيمنة خطاب الاسلام السياسى

الأصولى على حركة المجتمع وخاصة طبقاته الوسطى الحديثة وقيامها باستلام مهام قيادة العمل الوكنى والقومى ضد الصهيونية والاستعمار. أما الاحتمال الثانى فهو تفتح النضال الديموقراطى وتبلور مشروع حقوقى عربى وتحرره من الطابع الصفوى الذى فرض عليه بسبب التغييب الشامل للمجتمع وابعادة قسراً عن المشاركة فى تقرير شئونة وتحديد مصيره.

ولا يمكن التنبؤ بدقة بالتطور المستقبلى للمجتمعات العربية فى المرحلة المقبلة نظراً لحالة التمدد العدوانى الأمريكى عالمياً، وفى بلادنا العربية بالذات ونظراً للوهن البالغ للمجتمع المدنى بعد عقود من القمع. فالتحرر النسبى من ثقافة الخوف بالرغم من استمرار البطش السياسى بكل مظاهره الخارقة للحقوق الأساسية يقود إما إلى المعارضة الدينية أو المجتمعية الديموقراطية. والتنشيط المدهش للعقل السياسى وللحالة السياسية الجماهيرية يمكن بدوره أن يصب فى أى من البديلين. والشعور الضاغط بالتهديد الذى يمثله المشروع الصهيونى والامبريالية الأمريكية قد يقود حتى بعض دوائر الحكم الى توجهات أو استنتاجات أو ردود فعل جديدة ولو أنها متأخرة. ولا شك أخيرا أن مسار العمليات العسكرية والسياسية فيما يتعلق بالعراق سوف تؤثر بشدة على التطور السياسى العام فى المنطقة العربية بأسرها وهو ما يجعل أى استنتاج مبكر لاتجاهات المستقبل أمراً صعباً للغاية.

ثمة شىء واحد مؤكد فى تقديرى وهو أن الأمة تحتاج إلى بلورة مشروع حقوقى متكامل فى سياق النضال ضد الظلم القومى الذى تتعرض له. بل ولن يمكن أبدا كسب المعركة مع الموجه الراهنة من الاستعمار الجديد الذى يمثله العدوان الأمريكى على العراق وفلسطين بدون اعادة ادماج الفكرة الحقوقية الديموقراطية مع الحقيقة الوطنية والقومية. لقد جربنا نظماً وطنية قضت على الحريات العامة وانتهت بأن قوضت المجتمع نفسه. وآن

ساهمت السياسة الأمريكية خاصة منذ انطلاقة الانتفاضة الفلسطينية في دفع مزيد من الجماهير إلى تبني خطاب الهوية الدينية والخط السياسي لحركات الإسلام الأصولي

الأوان لاستعادة الحضور المجتمعى عبر الديموقراطية واحترام الحقوق الأساسية للانسان العربى. فالكرامة الوطنية لا تنفصل أبدا عن الكرامة الانسانية التى هى جوهر المواطنية.

د. محمد السيد سعيد

الاتجاهات المتعارضة للحالة الجماهيرية تفتح احتمالين للتطور: الأول استمرار هيمنة خطاب الإسلام السياسي الأصولي والثاني يفتح النضال الديمقراطي وتبلور مشروع عربي